الفصل الرابع

الحرب و آثارها

في العام ١٩١٣م بدأت الحرب الكبرى وكانت نذر قدومها جلية للجميع حتى للذين ينظرون للبحر من بعيد من شواطئ الجزيرة العربية. وظهر ابن سعود الذي صار يحتل جزءاً كبيراً من شاطئ الخليج الفارسي، لمواجهة العاصفة في حال قدومها، وكان لديه الكثير ليقوم به في ترتيب البيت من الداخل قبل ذلك الحدث، وكان من الطبيعي أن يقضي وقتاً مقدراً في مقاطعته المملوكة حديثاً (الأحساء)، والتي ظل فيها حتى شهر أغسطس، وباشر بنفسه إعادة تنظيم الإدارة. وأحضر ابن عمه عبدالله بن جلوي من القصيم ليكون قائداً عاماً لقواته في الأحساء، و حل محله فهد بن معمر في بريدة والذي رقي من إدارة منطقة الخرج، و استمر عبدالرحمن بن سليمان حاكماً للقطيف والتي زارها ابن سعود في نهاية يونيو ليتقبل فروض الولاء من أهلها ومساهماتهم في إعداد الجيش كل بقدرته دعماً لاحتياجاته والتي لم تكن باهظة بل تستحق تعليقاً جذاباً بالقياس إلى اقتصاد البلاد في تلك الأيام. وكانت جملة مساهمة المدينة ما لا يزيد عن ١٥٠ رأساً من الضأن، ١٥٠ كيساً من الأرز و ١٠٠ صفيحة من زنة ٤ جالون من الزبدة الخالصة والمنقاة للطبخ، في حين أنه في العام ١٩٤٨م وإبان زيارة ولي العهد لساحل الأحساء لاستقبال حاملة الطائرات الأمريكية " فالي فورج" والاحتفاء بها جلس الضيوف إلى مأدبة تتكون من ٣٠٠ خروف كامل موضوعة على ٣٠٠

طبق من الأرز، و كانت الأموال التي جُبيت من مواطني الأحساء في الاحتفال بمناسبة تحررهم ٤٠,٠٠٠ دولار ماريا تريزا والتي تعادل ٤٠٠٠ جنيه (ذهبي بالطبع في تلك الأيام) والتي تعادل تقريباً ربع الدخل اليومي من عائدات النفط في هذه الأيام! وفي تلك الأيام السعيدة الماضية كان يمكن لابن سعود حمل كل أصول الدولة المالية معه في حقائب على ظهر بعيره؛ و بنظرة ما كان ابن سعود أكثر ثراءً في تلك الأيام عما هو عليه الآن، وفي ذات الوقت كان سخاؤه وجوده يتزايدان بتزايد دخله وحتى في أيام متأخرة كان وزير مالية المملكة يتخذ من غرفة نومه خزانة للدولة رغم أنه كان يقلق بشان المبالغ الكبيرة بحوزته والتي كانت تبلغ ١٠,٠٠٠ جنيهاً ذهبياً! وكل ذلك بالطبع تغير الآن.

وعاد ابن سعود إلى الرياض نحو نهاية ١٩١٣م والذي كان أهدأ شتاء قضاه طوال سني عمله النشط، و قد زعزعت هدنة الصيف التالي الأخبار التي وردت عن اندلاع الحرب بين بريطانيا وألمانيا في بداية أغسطس. وبينما كانت الجهود الدبلوماسية البريطانية منشغلة في القسطنطينية بمحاولاتها لإبقاء تركيا خارج نطاق الحرب فإنه كان شائعاً في الجزيرة العربية أن تركيا ستدخل الحرب قريباً إلى جانب ألمانيا. وقد أدرك مختلف الحكام في الجريرة العربية أن الحياد الكامل غير ممكن أمام ذلك الحدث، بينما بدا واضحاً أن ابن رشيد التزم مسبقاً بالتعاون المخلص لقوته الإقطاعية. و يمكن قول ذلك أيضاً عن عجيمي السعدون و أتباعه من قبيلة المنتفق، بينما كان مسلك الشريف حسين في الغرب متلوناً ومتغيراً تبعاً للظروف. والتزم الشيخ مبارك حاكم

الكويت بالولاء لبريطانيا؛ لأنه يمثل الأمل الوحيد للحفاظ على استقلال بلاده، و لكن السؤال الوحيد الممكن طرحه بخصوص الشيخ مبارك هل ستسعى بريطانيا لحمايته من عدوان حتمي تركي للسيطرة على إمارته؟

وبذا وجد ابن سعود نفسه في موقف عزلة رغم حقه في اختيار السبيل الذي يريده وسط الأخطار المحدقة؛ كان يعلم تماماً ماذا يريد لكنه لم يكن متيقناً تماماً من إمكانية حصوله على ما يريد لتذبذب السياسة البريطانية، والتي ظلت بين خيارين حتى الدخول الفعلي لتركيا للحرب حيث لم يبق لها خيار غير التعامل مع ابن سعود، دون تعارض مع الالتزامات و الخطط الأخرى للحكومة البريطانية.

وقد تم وصف الفترات الأولى من الحرب بدقة في الفصل السابق إلى أن وصلنا نهاية العام ١٩١٥م.

وفيما يتعلق بموقف الجزيرة العربية فقد كانت كل الأمور تبدو على ما يرام، ودفع أصدقاء بريطانيا مجرد الكلمات لحلم الوحدة العربية والتعاون العربي، وببعض التحفظات العقلية المستقبلية فقط عند الحاجة ربما تقوم الإدارة البريطانية بقراءة كلماتهم و تلميحاتهم والتي ترى فيها درجة هائلة من التبعية والخنوع للأماني البريطانية أكثر مما نووا إيصاله. وقد قام ابن سعود خصوصاً بعمل ضخم في ذلك السياق، حيث خرج منه بحصة شهرية ثابتة تبلغ ٥٠٠٠ جنيهاً ذهبياً، و دعماً سخياً من الأسلحة والذخائر. و بالمقابل كان يُتوقع منه إبقاء الضغط على مقاطعة ابن رشيد لمنع نشاطات قبائل شمر على الحدود العراقية لتهريب السلع من أسواق العراق للأتراك. وهذا الالتزام كان مفتوحاً للتأويل بحسب الظروف، بينما مثلت التزاماته لمحيطه العربي

رغم محدوديتها إضافة حقيقية. و حتى ذلك الوقت لم يكن ابن سعود يعتزم إعلان الحرب على تركيا أو ألمانيا أو حتى إظهار أي مظهر من مظاهر التضامن مع بريطانيا و حلفائها. وفي مفاوضات نوفمبر أظهر حسن نواياه تجاه بريطانيا إلا أنه أحبط بذكاء أي تأويل بأنه يبذل أكثر من ذلك. و قد حافظ على موقفه هذا حتى نهاية الحرب، وقد تخللته فترات من التوافق الودي المحافظ مع فخري باشا، القائد التركي للمدينة، والذي قاوم بنجاح محاولات حلفاء بريطانيا الأشراف لإشعال الحرب في الحجاز. و حقيقة كان حقه في الدفاع عن مقاطعاته ضد الانتهاكات من قبل أولئك الحلفاء دائماً ما أعطاه المبرر لتبطئة عملياته ضد عدوه المزعوم، والذي بدا غريباً أنه لا يريد الهجوم عليه في الوقت الذي كانت مصالحه تقتضي ذلك. و كان يجب أن يكون واضحاً له أن بقاء ابن رشيد في فترة ما بعد الحرب كعنصر فعال في سياسات الجزيرة العربية سيكون مشكلة لابن سعود، ولكن كان ذهنه دائماً مركزاً على خطورة بقائه وحيداً دون أصدقاء في مواجهة مناوشات ملك من الأشراف مزود بكل الدعم المادي والمعنوي من بريطانيا العظمى. لقد كان يرغب بشدة، وحاول مراراً، الحصول على ضمان من بريطانيا بعدم حدوث تهديد له من قبل الأشراف، و لكن كان ذلك أكثر مما خططت بريطانيا لتقديمه. و لم يكن من الممكن إنكار أن تخوفاته كان لها ما يبررها في ما تلا من أحداث. و كان عليه مجابهة ذلك الخطر وحيداً، بينما ابن رشيد العدائي القادر في خاصرته، ولم يكن لديه من يمدحه على نهوضه من تلك المحنة إلا نفسه، وكان بعد نظرة في تقييم الموقف و الخطوات التي اتخذها مقياساً لعبقريته الفذة كقائد عسكري وسياسي.

وفي بدايات عام ١٩١٧م تلت الفترة الأولى من الثورة العربية وقفة حذرة، حينما بدا أنه أكثر من المحتمل أن تحدث ردة فعل عنيفة من قبل الأتراك بهدف استعادة الموقف. وقد قام الكولونيل ت. إ. لورانس بالذهاب إلى جدة لرفع معنويات الأشراف المنهارة، و الذين سريعاً ما أعادوا تنظيم صفوفهم، وتسليحهم من جديد للمسيرة الطويلة شمالاً ابتداء من رابغ في الثالث من يناير والمنتهية في العقبة في أغسطس.

وفي غضون ذلك وعلى الجانب الآخر من الجزيرة العربية عانى ابن سعود والبريطانيون من نكسة الكويت، حيث قام سالم بن مبارك الذي تسلم الإدارة في عام ١٩١٦م، والذي بدأ عهده هادئاً، بإظهار حقيقته في شكل عداء عام لابن سعود، و إظهار تأييده للأتراك بالتشجيع إن لم يكن بتنظيم التهريب من الكويت عبر مقاطعة ابن رشيد إلى سوريا.

ساهمت هذه المناورة لكسر الحصار البريطاني في بلاد ما بين النهرين ودور تجار القصيم النشط، والحاجة الملحة لفعل كل ذلك ربما أتاح تحويل أنظار ابن سعود من الغرب حيث كانت تتقدم نشاطات واعدة في تركيز الاهتمام بالصحراء العربية، حيث لم يكن ابن سعود نشطاً كما كنا نريد لمواصلة الأعمال العدائية ضد غريمه في الشمال.

ورغم ذلك كانت حظوظ بريطانيا في تصاعد في إقليم دجلة. وقد يسر احتلال بغداد في ١١ مارس تحرر سير بيرسي كوكس من الالتزام بالمواظبة في صفوف الجيش. حيث كان مشغولاً جداً بالقضايا السياسية والإدارية قرب موطنه؛ و لكنه دائماً ما يجد وقتاً للجزيرة العربية. ودفعه ضغط سير ريجنالد

ونجت والمكتب العربي في القاهرة للتحرك السريع لمنع تطلعات ابن سعود الفضولية للقيام بنشاطات عدائية في حدود الحجاز إلى التفكير مرة أخرى في إمكانية العمل بصورة قريبة مع ابن سعود، و لتمكينه من فهم وجهة نظر المكتب العربي في القاهرة.

وصل السيد رونالدو ستورس، والذي كان حينها سكرتير المشرق للمفوض السامي في مصر، إلى بغداد في مهمة استشارية ؛ وسرعان ما اتخذ قراراً بالاستفادة من خدماته ومعرفته الجيدة بالمشكلات في القيام بزيارة لابن سعود، و كان عليه القيام بذلك بوصفه ممثلاً لسير بيرسي كوكس، ولكن حقيقة قدومه من الجانب الآخر من الصحراء سيمكنه من التحدث بصوت واحد نيابة عن مصلحتين متضادتين. وقد هيأت كل الظروف لموعد مثالي لكن أثنت حرارة الصحراء ذلك المبعوث والذي سريعاً ما عاد إلى الكويت مصاباً بضربة شمس.

أنتجت هذه الكارثة انهياراً مؤقتاً في بغداد، مثلما كانت المصيبة العظمى في وفاة شكسبير في حادث في البصرة في بدايات الحرب. ولكن سير بيرسي كوكس لم يثبط، وعندما جاء الكولونيل ر. إ. أ. هاميلتون (فيما بعد اللورد بيلهافن وستنسون) الوكيل السياسي في الكويت، في يوليو لمناقشة قضايا الحصار، تم اختياره ليترأس بعثة بريطانية سياسية عسكرية للتوجه إلى ابن سعود. وكان هاملتون جندياً صلباً مع حس بالمغامرة والحياة الخشنة؛ وبدا كل شيء قد أعد بطريقة جيدة لاستئناف العلاقات الجيدة مع الحاكم الوهابي. والذي كان عابساً في خيامه، بينما تشع أضواء المصابيح عند غريمه الطموح في الغرب.

وفي انتظار اختيار وإعداد مجموعة الموظفين الذين سيرافقونه إلى الرياض عاد هاملتون إلى الكويت ليعطي دفعة للقرارات التي تم التوصل إليها فيما يخص الشؤون المحلية. وبينما هو منهمك في ذلك جاءته معلومات عن بعض عمليات التهريب إلى القصيم، وبنفاذ صبر لا مثيل له قرر البدء في مهمته وبدأ رحلته من بريدة إلى الرياض حيث رضي بانتظار وصول بقية أعضاء بعثته، ولسوء حظه لم يتم إخطاره قبل مغادرته بغداد، فقد تم تراسل ذو طبيعة سرية لبضعة أسابيع بعد مغادرته بين القاهرة و بلاد ما بين النهرين. ولأسباب أخرى كان على ستورز الانضمام للبعثة قادماً عبر الريف من جدة، بينما قرر ضم ممثل لقائد الجيش إلى البعثة، إضافة إلى طبيب وربما آخرون. كان سير بيرسي كوكس حريصاً على أن يكون عمل البعثة، الذي قضى فيها كثير وقت وتفكير تحت إدارته، وفي ذات الوقت يجب أن يكون هدفها الأساسي توفير حماية معقولة لمصالح ابن سعود والذي كان يحس تجاهه بمسؤولية شخصية. وفي هذه الأحوال، وفي ضوء الحقيقة القائلة إن كل شخص من الفريق المقترح،عدا الطبيب، كان له مصلحة محلية ما، واعتبر أن قائد البعثة يجب أن يمثله هو شخصياً دون محدودية أفق أو تحامل، وقد وقع اختياره عليّ.

وخلال الشهور السابقة عملت كسكرتير شخصي له، أجهز جبالاً من الأوراق في مختلف المواضيع التي تهمه، إلى جانب كل الملفات والرسائل العاجلة المتعلقة بالمشاكل التي ستبحثها البعثة. وهناك أيضاً اهتمامات أخرى غريبة كان يجب الاهتمام بها؛ وبينما كان الكولونيل أ. تي. ويلسون نائبه على البصرة قادماً إلى بغداد لتولي العمل الذي كنت أقوم به، سيكون ممكناً

لي القيام بعملي الجديد في مكتب رئيس المكتب السياسي دون إعاقة ترتيبات الفريق.

ومن نافلة القول، أني كنت أكثر من راغب في الذهاب، ومن ثم فقد حانت فرصتي في الرسو بعد حوالي ٤٠ عاماً من التجوال في الفيافي. وسرعان ما اتخذت طريقي إلى الجزيرة العربية وفي معيتي الكولونيل كنليف أوين، ممثل قيادة الجيش وجندي المراسلة خاصته. وفي ٣٠ نوفمبر كان لي شرف لقاء ابن سعود لأول مرة.

كانت العشرة أيام التي قضيتها في الرياض قبل استئناف رحلتي نحو الحجاز تجربة لا تنسى. كانت الأوامر تقضي بمناقشة ابن سعود في الآتي:

(أ) السرعة في اتخاذه خطوة ضد ابن رشيد، لمنع الأخير من الخروج عن نغم عمليات الأشراف في الغرب، ولوضع نهاية لعمليات تهريب البضائع عبر مقاطعته إلى الأتراك.

(ب) تنقية الأجواء وتمهيد الطريق لقيام علاقات حسنة بين الحاكم الوهابي مع جيرانه والشريف حسين (الذي صار ملكاً للحجاز ويطالب بأن يكون ملكاً للعرب) والشيخ سالم حاكم الكويت.

(ج) التوصل إلى حل دائم لمشكلة قبيلة العجمان.

(د) مناقشة ابن سعود في خطته لسك عملة نحاسية لمنطقة نجد.

(هـ) مناقشة مدى رغبته في وجود عميل سياسي بريطاني دائم في قصره.

وقد ثبت أن النقطتين الأخيرتين ذوات طابع أكاديمي، وقد تم تأجيل النقاش حولهما إلى وقت يحدد مستقبلاً.

و فيما يخص الشؤون الثلاث الأخرى فقد بدأنا فيها مباشرة؛ ومن مجمل ١٣٢ ساعة عمل بعد وصولي لم أقض سوى أقل من ٣٤ ساعة في مقابلات شخصية مع ابن سعود، إضافة إلى النقاشات حول ضمان الدعم والإجراءات الإعلامية لذلك مع ابن عمه، أحمد بن ثنيان، والذي كان ساعده الأيمن في ذلك الوقت فيما يخص السياسة، وقد سبق ذكره في الحديث عن فتح الأحساء. ولأقتطف بعضاً من تقريري الرسمي حول مسيرة البعثة:-

"لقد وجدت في ابن سعود رجلاً لا يعرف الكلل، و رغم أنه يستمد وجهة نظره وبلاغته من الفصاحة القرآنية، إلا أنه رجل ذو قدرة عملية فائقة، ويعلم جيداً عن أحوال العالم حوله وملم بتعقيدات السياسة العربية، وفوق كل ذلك مقتنع تماماً بضرورة التحالف مع بريطانيا كضمانة وحيدة لمصالح بلده ومواطنيه الآن وفيما بعد".

وهذا التشبيه يناسبه تماماً هذه الأيام. ربما فقد بعض البلاغة، لأن مناسبات توظيفها صارت نادرة، و أمكن للسيف أن يرتاح ويصدأ في غمده. ولكن في كل حين و آن يمكن للمرء أن يلاحظ أن النار لا تزال متقدة، مستعدة للاشتعال من الجذوة المستكنة. وربما كانت التبعة ثقيلة على كاهله؛ مع الضغوط الجديدة التي فرضتها المشاكل غير المعتادة للعالم المتغير، وبعيداً عن كرسي المعاقين والذي يعكس استسلامه لضعف بدني، إلا أن الأمير الشاب المعدم والذي خرج باحثاً عن حظه قبل خمسين عاماً مضت يمكن ملاحظته بسهولة متمثلاً في ذلك الشيخ العجوز الذي هو الآن ملك المملكة العربية السعودية.

ولنعد إلى الأحوال قبل أكثر من ثلاثين عاماً مضت، حيث أفكار السير بيرسي كوكس الطموحة فيما يخص حجم البعثة التي كنت مسؤولاً عنها والتي تحولت إلى إحباط. فقد رفض الملك حسين السماح لستورز، الذي كان عليه الانضمام إلينا في الرياض، بعبور أراضيه بحجة الخطر المحدق من دولة الصحراء. فكان علينا السير بأقصى ما عندنا دون انتظار المساعدة من مصر. وتم اختيار الكولونيل هاملتون للعودة إلى الكويت حالما انتهينا من الأمور الخاصة بالشيخ سالم. وعاد الكولونيل كنليف أوين وجندي مراسلته إلى العراق في فبراير، بينما لم يحضر الطبيب والذي كان سيكون نافعاً جداً في بلد لا تزال تشغله الأمراض وعلاجها. وبالتالي كنت وحيداً من الناحية العملية في الجزيرة العربية الوهابية طوال فترة عمل البعثة، والتي انتهت تقريباً بالحرب ؛ دون موظف أو خادم. ولا أزال أنظر بعاطفة خاصة إلى السنة الأولى وسط أناس متعصبين قساة كأحسن سنة في حياتي. ولما رجعت بعد بضعة سنوات في العراق وشرقي الأردن كانت عملية التحول قد بدأت قدماً بطيئة في البداية ولكنها ثابتة تحقق أهدافها. وبدأ الوهابي المتعصب في الرشف من ملذات الكفار وقد وجدها ليست بالسوء الذي كان يظنه[1]: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾.

قبل وصولي إلى الجزيرة العربية كان ابن سعود خلال ربيع وصيف ١٩١٧م يقود حملة بالقرب من قبيلة شمر، كتنفيذ لالتزاماته تجاه المساعدة البريطانية بالمال والسلاح. وفي مطلع يونيو ترك قيادة العمليات لابنه تركي،

---

(١) ما ذهب إليه المؤلف بهذا الوصف تلك الوسائل التي استخدمها الملك عبدالعزيز بكل حرية وحرفية تدل على سعة في الأفق، ومواكبة للتطور مثل أجهزة اللاسلكي والمذياع وغيرها من الأدوات ذات النفع العام للوطن والمواطن.

وعاد إلى الرياض لصيام رمضان، والذي وافق منتصف الصيف ذلك العام والعام الذي يليه. ولم تحقق تلك الجهود شيئاً. ولاقتناع ابن رشيد بأنه في مأمن ذهب تاركاً عاصمته في يد أحد اتباعه، لينضم إلى الأتراك بالقرب من مدائن صالح على سكة حديد الحجاز. وفي ذات الوقت أرسل مبعوثه الخاص رشيد بن ليلى إلى دمشق للتباحث حول طلبات سيده مع السلطات التركية. وقد أعطى المأزق في الصحراء الشريف حسين التدبير المناسب لتجد شكواه من فتور ابن سعود فيما يختص بالقضايا العامة صدى؛ وقد عبر المفوض السامي في مصر عن أمله في أن تسفر أعمال بعثتي عن النتيجة المأمولة في شكل عداء نشط ضد الأتراك من جانب ابن سعود؛ لأنه قد يثبت للملك حماقة سياسة الشك الحالية وعن عقلانية عقد صلح مع أقرب وأقوى جيرانه.

كان هدفنا بالتالي ترتيب استئناف الهجمات العدائية على حائل؛ وقد وجد أن ابن سعود كان جاهزاً للضغط على الحملة في ذلك الاتجاه بقوة، باعتبار أننا نريد وضعه في موقف قوي ليتمكن من فعل ذلك. و رغم ذلك فقد صدمنا حين علمنا أن المدافع وأغلب الذخيرة التي أمد بها بموجب الترتيبات التي صودق عليها في نوفمبر الماضي لا تزال موجودة ولعام كامل في مخزن بارد في الهفوف. بينما توفي ثلاث من أصل أربعة رجال تم تدريبهم في البصرة على استخدام تلك المدافع؛ وقد نسي الرابع كل ما يتعلق بتدريبه حول استخدام تلك المدافع؛ وعلى كل حال، فقد قالها ابن سعود واضحة لنا بأن العمليات الجادة ضد حائل ستستلزم مزيداً من العتاد والمال؛ وكنا نميل إلى موافقته فيما يرى. وقد كان ابن رشيد، أكثر تجهيزاً من غريمه – رغم الصغر

النسبي لمقاطعته واقتصارها على موقع حيوي واحد هو حائل ذاتها – ولم يكن لديه فقط أراضي واسعة ليحميها ولكن أخطار محدقة أخرى كان عليه مجابهتها مثل الموقف القبلي في شرق الصحراء، حيث كانت قبيلة العجمان لا تزال تعلن عن استيائها.

وبعد النظر في كل المعلومات المتوفرة قدرنا والكولونيل كونكليف أوين قوة ابن رشيد الفاعلة بحوالي ١٢,٠٠٠ رجل مسلحين ببنادق حديثة ومزودين بذخيرة كافية،إضافة إلى خمسة مدافع تركية للدفاع عن عاصمته والتي كانت جدرانها في حالة طيبة. وقد كان معلوماً فيما بعد أن رشيد بن ليلى قد عاد من دمشق بإضافات تسليحية ضخمة، ومن الناحية الأخرى كان تقديرنا لموارد ابن سعود التسليحية بحوالي ٨٠٠٠ من البنادق الحديثة، ٤ مدافع حديثة وربما درزن من الهاونات زنة سبعة أرطال التركية في حالة جيدة، رغم افتقاره للأيدي المدربة التي تديرها. إضافة إلى ذلك كان هنالك بالتأكيد بعض آلاف من البنادق العتيقة والأدنى كفاءة، وقدر معقول من إمدادات الذخيرة في أيدي الإخوان وبعض فرق المقاطعة الأخرى. وكان واضحاً أن هنالك ما ينبغي فعله لتجهيز ابن سعود بشكل ملائم إذا كنا نتوق حقاً أن يهزم ابن رشيد. ولكن السؤال حول التمويل الملائم لمثل هذه العمليات لم يكن أقل أهمية من التسليح. كانت عائدات ابن سعود تأتي أساساً من الضرائب والمكوس التي تجبى من موانئ الأحساء، ومن ضرائب الزروع على مزارع النخيل والأراضي المنتجة للغلال، ومن زرائب الحيوانات. ولم تكن جملتها تصل أكثر من ١٠٠,٠٠٠ جنيه سنوياً، إضافة إلى ذلك

كان لديه المعونة البريطانية التي تصل إلى ٦٠,٠٠٠ جنيه سنوياً. وكان يصرف من هذا الدخل على زعماء شيوخ القبائل للسيطرة على مستعمرات الإخوان، بينما كانت الميزانية بالكاد تفي باحتياجاته والمصروفات الإدارية المقتصدة. وكان من الواضح أنه في حاجة إلى مال ليتزود بجمال للنقل لأي عملية جادة وبمعينات لجيشه، وذلك خلاف المخصصات الأسرية ومصروفات الأتباع الذين يخدمون في الميدان.

وقد توصلنا إلى أنه في حاجة إلى:

أ) أربعة مدافع ميدان مع ذخيرة كافية وأيدي مدربة ويفضل سجناء الحرب العرب من الجيوش التركية من بلاد ما بين النهرين.

ب) ١٠٠,٠٠٠ بندقية حديثة مع ذخيرة مناسبة.

ج) دفعة أولية بحوالي ٢٠,٠٠٠ جنيه لشراء حيوانات للنقل، ومساهمة شهرية تبلغ ٥٠,٠٠٠ جنيه لمدة ثلاثة أشهر لإيصال هذه الحملة إلى هدفها بنجاح. ولم يكن هنالك بالطبع أية مقارنة بين مقترح ابن سعود المتواضع للمساعدة وبين المستوى البذخ والذي كانت تدعم به عمليات الأشراف؛ ولكن لم يكن هنالك أيضاً مقارنة بين النتائج المتوقعة لكلا الحالتين. وقبل رفع هذه التوصيات إلى بغداد، على كل حال، اعتقدت أنه من الحكمة الحصول على تعهد من ابن سعود، في حالة تنفيذ ما التزمت له به فعليه البدء جدياً في شن الحملات الهجومية المطلوبة على ابن رشيد. وكان من الواضح أن ابن سعود كان محبطاً قليلاً من ضآلة طلباتي فيما يخصه؛ ولكنه أعطاني التعهد المطلوب، وبالتالي أرسلت

مقترحاتي إلى بغداد. وفي انتظار الرد، والذي يتطلب وقتاً ليصل إلى الرياض، فقد سافرت إلى الحجاز لبحث الأوضاع مع الملك حسين و د. د.ج. هوجارت والذي أتى من جدة كممثل للمندوب السامي في مصر. غادرت الرياض في يوم ٩ ديسمبر متوقعاً عودتي خلال شهر واحد؛ ولكن لم تتسن لي العودة لمعسكر ابن سعود الربيعي في منطقة شعيب الشوكي إلا في منتصف أبريل.

وعند ذلك الوقت، تغير الوضع العسكري بشكل مغاير لجميع التوقعات. سقطت القدس قبل زمان طويل، ورغم سيطرة الأتراك على سكك حديد الحجاز في جانبها العربي حتى المدينة إلا أنها أصبحت أقل استخداماً من قبلهم للدمار الذي حدث في الطرق والجسور والذي أحدثته عمليات لورانس الفعالة. كانت مضايقة ابن رشيد مهمة في تقديرات الحكومة البريطانية؛ ولم يكن مستغرباً أن تغدو مقترحاتي المتواضعة التي قدمتها في ديسمبر مفرطة وباهظة في أبريل. وفي الحقيقة كان قد تم صرف النظر عنها رغم جهود سير بيرسي كوكس لإعادة النظر في المسالة. وافقت الحكومة البريطانية على أن يكتب القرض الذي اقترضته لابن سعود قبل مغادرة الرياض والبالغ ١٠,٠٠٠ جنيه على أنه منحة أو هبة ؛ وقد تم الاستعداد لتسليمه ١٠٠٠ بندقية مع ١٠٠,٠٠٠ طلقة من الذخيرة. وفيما عدا ذلك كانت الحكومة البريطانية غير راغبة سوى أن تعد ابن سعود بهبة بحوالي ٥٠,٠٠٠ جنيه وزيادة المنحة الشهرية إلى ١٠,٠٠٠ جنيه في حالة استيلائه على حائل مع توفير موارد تحت تصرفه.

كنت غير سعيد بمقترح أن أقوم بإيصال هذه الأنباء غير السارة لابن سعود الذي سيرى أنها نتائج لمكائد الملك حسين، وربما يقوم باستبعاد عمليات حائل لصالح النشاطات الأخرى على حدود الحجاز. وكان سلوكه طبقاً لما توقعته. فقد هزئ من الهبة المشروطة بإنجاز لم يكن باستطاعته محاولته. احتج الشريف لدى الحكومة البريطانية، ولم يكن باستطاعته سوى الانصياع لقرارها معتذراً بعدم قدرته على تقديم أي خدمات مستقبلية لهم. وبدت مهمتي في نهايتها، بإعلان العجز عن تنفيذ هدفها الرئيس وتوقع التقهقر العاجل والسريع للعلاقات بين ابن سعود والملك حسين، والذي رفعت تقريراً عن أهمية تطويرها إذا كان ذلك ممكناً. و لمنع هذه الكارثة الثانية، فقد قررت الحفاظ على موقعي كمساعد لزعيم ساخط؛ و لفعل ذلك أخذت على عاتقي مسؤولية تقديم القرض المالي المعطل تحت تصرفي في الأحساء، حوالي ٢٠,٠٠٠ جنيه، بشرط معلن وهو أن يحشد قواته للهجوم على حائل.

قبل المال والذي كان في مسيس الحاجة إليه، كما قبل الشروط الملحقة بالقرض: التعهد بكل ما تستلزمه الحملة بعد شهر رمضان. وفي غضون ذلك كانت لديه الكثير من الشكوى ضد الشريف وادعاءاته حول واحة الخُرمة، وضد غزوات قبيلة العجمان المستمرة داخل مقاطعته والتي تنطلق من ملجئهم في الكويت والعراق، وبخصوص الصعوبات المتجددة في الاتصالات بسبب الحصار وما يصاحبها من محاولات تهريب. وكان ردي الوحيد بأن الهجوم على حائل سيكون دواء لكل شكواه ؛ وقد أدرك أن عليه فعل شيء ما للحصول على أي مساعدة في المستقبل.

ساعدت نشاطاته في هذا السبيل على صرف تفكيره عن تظلماته من الملك حسين، وفي يوليو أرسل تركي إلى آبار العجيبة قرب حدود شمر لبدء الهجوم، حيث تراجعت جراءه الصفوف الأمامية للأعداء. ثم تحرك الفصيل الرئيس لقوات الوهابيين تحت إمرة ابن سعود شخصياً من الرياض في أوائل أغسطس. و في منتصف سبتمبر وصل بريدة؛ ونحو نهاية الشهر كان على أعتاب حائل، وكان الأول من بين أفراد عائلته الذي يجابه حائل كعدو. ولم يكن من السهل اقتحام المدينة ذاتها ؛ وتراجع ابن رشيد إلى بقعاء الآمنة، متجنباً معركة مفتوحة مع قوة متفوقة.

قام ابن سعود بمهاجمة عناصر شمر المتواجدين حول حائل، منزلاً بعض الإصابات وحصل على غنيمة كبيرة، تشمل ١,٥٠٠ جمل، ١٠,٠٠٠ طلقة من ذخيرة الأسلحة الصغيرة، أغلب أثاث المعسكر و آلاف الضأن. وعاد مع غنيمته إلى "قصيبة" ومن هناك عبر الطرفية إلى بريدة، حيث وجدت جواباً ينتظرني يحوي أخباراً وأوامر تفيد بانتهاء مهمتي. وعلى ضوء الانهيار الوشيك للقوات التركية لم يكن للحكومة البريطانية رغبة في معرفة مصير حائل، وبالتالي لن ترسل مزيداً من الدعم أو السلاح للحملة ضد ابن رشيد. كان ابن سعود بطبيعته عنيفاً، ويتحدث بانفعال عن توجيه إنذار للحكومة البريطانية. وبعد نقاش مستفيض اتفقنا على أن أعود إلى الساحل في محاولة للحصول على إعادة نظر لموقف السلطات البريطانية، وقال لي عند وداعي "إذا لم توفق، لا حاجة إلى أن تعود مرة أخرى[١]". وعند وصولي الكويت

(١) جزء من تقرير لقاء العقير في عام ١٩٢٦م.

سمعت بأخبار انتهاء الحرب بالنسبة لتركيا، ولم أعد بالتالي. عند عودتي إليه مرة أخرى بعد عدة سنوات لاحقة، لم أعد كمسؤول بريطاني، ولكن على عكس الأوامر المحددة من الحكومة البريطانية!

وفيما يخص حملة حائل في ذلك الوقت. خلال العشرة أيام التي قضيتها في الرياض قبل ذهابي إلى الحجاز، شد انتباهي ظهيرة أحد الأيام صوت طلقات في ساحة القصر. إنهم يعلنون وصول أخبار سعيدة، وكانت فحوى الأخبار نجاح أهل الخرمة في صد المحاولة الهجومية الأولى لقوات الملك حسين لاحتلال الواحة. ولمرتين خلال الصيف التالي، سمعت ذات الأصوات المشؤومة، تعلن عن هجمات أخرى على مستوى أوسع، وتحذر ابن سعود في مناسبة ثالثة، أنه إذا كان راضياً عن تعرض اتباعه للهجوم دون فعل أي شيء لحمايتهم فإنهم سيتخذون ما يرون من خطوات ضرورية للدفاع عن أنفسهم وبيوتهم. فحوى رسالة خالد بن لؤي كانت التأكيد على أنه إذا لم يحصلوا على رد مناسب في الحال فإنه سيرسل فتاة من الخُرمة دون نقاب كاشفة رأسها لاستثارة قبائل الجزيرة العربية للهجوم على الشريف حسين. قام ابن سعود، والذي احتج على تلك الهجمات في المناسبتين الأوليين، بإنذاري صراحة بأن الهجوم القادم على الخرمة سيعني الحرب بينه وبين الملك حسين. وأوصى رسله بحمل رده إلى أهاليهم مع التأكيد على أنه مصر كل الإصرار للمحافظة على كلمته. وهذه المرة أصبح علينا نحن المحافظة على كلمتنا التي تعهدنا بها قبل زمان طويل للحيلولة دون أن يصبح تذمره ثورة توقعه في المشاكل.

كان ابن سعود في ذلك الوقت متعكر المزاج، زادته سوءاً الحقيقة الواضحة أن المصلحة البريطانية كانت تنحصر في ثروته وتثبيطه عن الاعتداء على ما اعتبرته من طرف واحد محمية حسين. وكانت الخرمة منطقة ذات أهمية ضئيلة سواء اقتصادياً أو سياسياً، رغم احتلالها لموقع استراتيجي حيث تمثل باباً خلفياً لنجد. وكانت أهميتها الحقيقية تكمن في كونها رمزاً للصراع من أجل الزعامة العربية، وقد تحولت الآن لتصبح ركناً قديماً في القصيم إلى حدود الحجاز. وكانت روابطها الاقتصادية بلا شك مع الحجاز، رغم انتمائها جغرافياً وسياسياً إلى الصحراء، حيث تهيم وتتجول قبائل على امتداد وادي حنيفة والمناطق المجاورة للرياض، وكانت الأسرة الحاكمة لمنطقة الواحات من الأشراف أو من سلالة النبي.

وبذلك ربما كانت الإدارة البريطانية قد أخذت تحذير ابن سعود مأخذ الجد بثني حسين عن أي اعتداءات جديدة في ذلك الشأن، حتى نهاية الحرب، ويتحرروا بالتالي من أي التزام أخلاقي تجاه إصدار أحكام تفرق بين حلفائهم الرئيسين في الجزيرة العربية. وقد تم الفصل في تلك المواضيع بعد أشهر قليلة من نهاية الحرب في الوايت هول ليس على الأسس القضائية المتعلقة بالقضية وليس على أساس تقرير المصير ولكن ارتكازاً على تقدير خبراء متخصصين في قضايا فض النزاعات بين المتنافسين. وبناءً على نصيحة الخبراء العسكريين صدر القرار لصالح الشريف حسين الذي تم تخويله احتلال المنطقة المتنازع عليها بمباركة صاحب الجلالة ملك بريطانيا، بينما حُذِّر ابن سعود عن القيام بأي فعل من شأنه تعكير صفو العلاقات الودية التي كانت

قائمة بينهم وبين بريطانيا العظمى. تحرك الابن الثاني للملك، الشريف عبدالله بقوة كبيرة لتنفيذ القرار، ومن ناحيته قام ابن سعود التزاماً بعهده مع أهالي الخرمة بتعبئة الجيوش للدفاع عن كرامتهم واستقلالهم.

وفي غضون شهرين تم إبطال حكم الوايت هول بتحكيم السيف وأبيد جيش الشريف في تربة بينما خرّ الشريف عبدالله وأركان حربه في ميدان المعركة وبلغ صدى هذا الانتصار الوهابي مكة وجدة حيث كان هنالك ذعر وهلع من مذابح الأبرياء. واجتمع خبراء الوايت هول مرة أخرى لتقييم القرار الذي عجل بتلك الكارثة، بينما عاد ابن سعود مكللاً إلى الرياض للاستجمام في مأمنه بعد أن أضاف إلى مملكته واحة تربة ومنطقة البقوم التي كانت مركزاً.

وانتهت بالتالي الجولة الأولى من التنافس أو الصراع والذي سيتوج بدخول الوهابيين للحجاز بعد ذلك بست سنوات. ولم تُعر الحكومة البريطانية ما فعله ابن سعود في الخُرمة وتربة الاهتمام اللازم، وواصلت دفع معونتها المالية والتي أدت دوراً هاماً في صرف أنظار الوهابيين عن الحجاز لفترة قادمة. وقد أُرسل الأمير فيصل مع وفد مختار إلى إنجلترا لتهنئة الحكومة البريطانية على النصر الذي حُقق في الحرب العظمى، وفي ذات الوقت لمناقشة مستقبل العلاقات بين مملكة والده والمصالح البريطانية في الشرق الأوسط والجزيرة العربية.

لاقت الزيارة نجاحاً لافتاً بكل المقاييس، وقد بدا في ذلك الوقت أنه من المستحيل أن تأتي ظروف أخرى تعكر صفو العلاقات بين البلدين، لكن التمرد الذي تم في عام ١٩٢٠م في العراق وآثاره قد جلب فرعاً آخر من الأسرة

الهاشمية على الجانب الآخر من الحدود مع المملكة العربية السعودية، بينما كانت الأحداث في الشمال تتوالى لتكملة التفاف ابن سعود مع تشكيل إدارة للأشراف تحت الوصاية البريطانية في شرقي الأردن. وقد رد ابن سعود بشكل مميز بسلسلة ضربات متوالية مضيفاً إلى مملكته على التوالي عسير في عام ١٩٢٠م، حائل بعد ذلك بمدة قصيرة في عام ١٩٢١، الجوف ومنطقة وادي السرحان في عام ١٩٢٢م، ناهيك عن الأراضي الشاسعة التي كانت منطلقاً للغارات في قلب شرقي الأردن في صيف ١٩٢٢م والتي ردتها الطائرات والعربات المصفحة التابعة لسلاح الجو الملكي من قاعدتها في عمان. ومرة أخرى تجد الصحراء العربية نفسها في عصر من الهياج، "وستمضي جماعات الوهابيين في طريقها المحفوف بالدم في اتجاه الغرب".

ولكن يمكن الاحتفاظ بهذه الدموع لذرفها في المستقبل، وفي تلك الأثناء واجه ابن سعود مشاكل داخلية خطيرة على الحدود الشرقية حيث مثلت إحدى القبائل حجر عثرة لجهوده لإقامة علاقات ودية مع إمارة الكويت والإدارة البريطانية في العراق، وقد تم قول ما يكفي عن المشاكل السابقة بين ابن سعود وهذه القبيلة والتي صارت بعد احتلاله للأحساء تحت سلطانه. وقد انضمت إليه طائفة كبيرة من تلك القبيلة في حملته ضد ابن رشيد، والتي انتهت بمعركة جراب الفاشلة في يناير عام ١٩١٥م. وقد نسب فشله في تلك المعركة إلى تلك الطائفة، ولمعاقبة القبيلة ومحاسبتها بشكل حاسم فقد بدأ حملة في الأحساء في ربيع عام ١٩١٦م. وقد طالبت قبيلة العجمان بالسلام عند مواجهتها قوات ابن سعود جيدة التسليح وقد وافق ابن سعود بكرمه

المعهود على التفاوض لإقرار سلام دائم في اجتماع يعقد في الغد. وفي غضون ذلك عاد أخوه سعد الذي كان غائباً في ذلك الوقت إلى المعسكر. وقد طلب أن يسمح له بمهاجمة قبيلة العجمان تلك الليلة خوفاً من تساهل أخيه معهم. وتحت هذا الضغط أذعن ابن سعود لرأي أخيه وتراجع عن حكمه الصائب. وقاتل العجمان رغم قلة عددهم بضراوة وعنف ولم يكتفوا برد تحية قوات ابن سعود ولكنهم جعلوا سعداً نفسه يدفع ثمن ذلك والذي كان حياته. بينما جرح ابن سعود. عمل العجمان بقدر طاقتهم وكل ما أمكنهم من سعة على سلامة دولة الكويت حيث أصبحوا تلقائياً تحت الحماية البريطانية. وفي هذا الأثناء عاد ابن سعود إلى الرياض مضمراً الانتقام لمقتل أخيه. ورغم إدراكه أنه لا يمكن له مهاجمتهم حيث هم دون الدخول في حرب مع الإنجليز. فكان عليه الاكتفاء بالاحتجاج على توفير مأوى للخارجين على دولته بحيث يمكنهم شن هجمات على مقاطعاته وتسبيب الضرر لممتلكاته. ولم يتم مناقشة هذا الأمر برمته حتى نوفمبر ١٩١٦م بين سير بيرسي كوكس وأمير الكويت وابن سعود كجزء من الترتيبات من أجل قيام تعاون شامل بين أصدقاء بريطانيا العرب وحلفائها أثناء المجهود الحربي. تم تأكيد هذا الوضع الودي بالتزام قبيلة العجمان وضمانات بريطانية وكويتية بالكف عن كل الأعمال العدائية ضد ابن سعود بينما تراجع الأخير عن اعتراضه على بقائهم في مقاطعة الكويت.

كان القصد أن تستمر هذه الاتفاقية سارية المفعول حتى نهاية الحرب. ولكن لم يمض وقت طويل على هذه الاتفاقية حتى هاجت الروح البدوية التي

لم يكتمل خمودها، وقد حدث هذا بالصدفة المحضة أو عن قصد حين بدأت كل القبيلة حركتها في داخل الصحراء غرباً في اللحظة التي كان ابن سعود متوجهاً فيها نحو الشمال لغزو ابن رشيد. وكان مجرد ظهورهم إلى جانبه كافياً لإثنائه عن خطته لمهاجمة قبيلة العجمان بينما كانت عودة شيخ القبيلة الرئيس والذي أُبعد بحسب اتفاقية نوفمبر بسبب التجائه إلى الأتراك بعد حادثة الأحساء، تمثل بدورها خرقاً آخر للاتفاقية وتحرراً من المسؤولية الأخلاقية على الأقل – من قبل بريطانيا والشيخ سالم.

وبعد محاولات عدة للتخلص من هذا المأزق تقرر ذهاب القبيلة إلى منطقة الزبير في الأراضي المحتلة من العراق وعدم إعطاء الكويت الحق فيها، وبالتالي أصبحت منطقة عازلة بينهم وبين نجد. ولم يكن هذا التدبير أكثر فعالية من سابقيه، واستأنف العجمان غزواتهم من قاعدتهم الآمنة في المنطقة البريطانية ضد قبائل نجد والأحساء: مستخدمين الكويت ممراً للتقدم بالاتفاق الضمني مع الشيخ سالم، ومع قبيلة العوازم الكويتية، والتي كانت تظن أن من حقها أن ترعى في الصحراء الشرقية دون دفع ضرائب أنعام لابن سعود، ساتراً لتحركاتهم. وقوبلت نشاطاتهم بالطبع من قبل القبائل النجدية مثل مطير، وسبيع والأخريات بغزوات على الأراضي الكويتية، وظلت شرقي الصحراء في حالة غليان طوال فترة بعثتي في الجزيرة العربية.

ثأر ابن سعود بفرض ضرائب على قبيلة العوازم، الذين صاروا حينها الضحايا الأبرياء للعداوة المتزايدة بين نجد والكويت. وقد كان الاتفاق المرضي لحل مشكلة العجمان إبعاد القبيلة من الأراضي الكويتية بواسطة ابن سعود

شرطاً لابد منه لإعادة النظر في وضع العوازم، بينما أكد لنا أنه إذا كتب له الشيخ سالم رسالة ودية يسأله فيها الرجوع للاتفاقية القديمة فيما يخص هذه القبيلة فإنه سيلتقيه لبحث المسألة. وفي الواقع لم يتحقق أي من ذينك الشرطين، بينما قام ابن سعود دون رغبته في فعل أصح الخطأين على حساب طرف ثالث بريء بحل المسألة بنفسه بوقف جمع ضرائب الرعي. وفي النهاية قامت الحكومة البريطانية دون إمعان التفكير في مزايا القضية ودون نظر في مدى ملاءمتها لاستمالة ابن سعود ولإبعاد فكره عن مآخذه على الملك حسين بتبني المقترحات المقدمة من قبل البعثة قبل عام مضى. وتم تحذير العجمان في حالة استمرار هجماتهم، فإنه سيتم وقف إعاناتهم وستقفل الأسواق العراقية في وجههم، بينما سيمنح ابن سعود الحرية لفعل ما يشاء وللتعامل معهم بما يراه، مع ضمان سلامة وعدم تضرر سكة حديد وادي الفرات.

وقد حلت المشكلة نفسها بنفسها مع نهاية الحرب، فقد أوقفت الإعانات البريطانية كما أوقفت حماية أحمد بن جابر عن قبيلة العجمان، وقد تلاه سالم كحاكم للكويت في ١٩٢١م، ولم يجدوا غير الإذعان وتوقيع معاهدة مع ابن سعود الذي كان قد أصبح حينها، بعد قضائه على ابن رشيد، الحاكم المطلق لصحراء الجزيرة العربية من تخوم سوريا وشرقي الأردن إلى النهايات القصوى من الربع الخالي، ومن الخليج الفارسي حتى البحر الأحمر. ولم يمض وقت طويل حتى بدأت ملامح المجتمع البدوي الصرف في التغير خلال سيطرة حركة الأخوان إضافة إلى ظهور عامل آخر ألا وهو التصنيع في الصحراء الشرقية. وحتى يومنا هذا، لا يزال البدو يرعون قطعانهم وماشيتهم في مراعي الصحراء: يعانون مواسم الجفاف والسيول كأسلافهم، لكن ثروة الجزيرة العربية لا تقارن إذا ما قيست بصناعتهم القديمة.